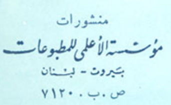
أحمد الوائلي

نحو
تفسير علمي للقرآن





أحمد الوائلي

نحو
تفسير علمي للقرآن

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذا البحث...

فيه نقد... وفيه بناء...

والنقد الإسلامي لا يمكن إلا أن يكون بناءً لا يسأل صاحبه أجراً ولا يتكلفه سخرة.. ومن ثم كان أنأى ما يكون من صفة الهدم، لأنه أدنى ما يكون من دواعي الاخلاص.

هو أمانة.. ولا يحمل الامانة هدام، لأن الهدم ظلم وأساسه جهل.. ولا ينبغي أن يحمل الأمانة ظلوم جهول.

فيه نقد: لأنه يفحص ويزن ويمحص، ولا يقبل أو يرفض بدءاً، فهو لا يكرع في الظلام بل يختار عن بصيرة ويعاف عن بصيرة.

وفيه بناء: لأنه لا يجرد عن الاخطاء معولا للهدم، بل حافزاً لتشكيل الكيان من جديد، فهو يكشف عنها ويعرضها

حتى تستبين لمن يريدون أن يرفعوا بناءهم خالصاً من الأوشاب والزيوف.

والموضوع - بعد - خطير، لأنه يتصل بالقرآن -: الكتاب المبين الذي لا تنطفىء شعلة اعجازه أبداً، بل هي أوارة متقدة تذكي الضوء في محاجر العصور وتسرج الآفاق للأجيال.

إنه التفسير...

وهو موضوع له مناهجه... وله آفاقه ومشكلاته..

ومن مناهجه ما هو قلق سقيم... ومنها ما هو ثابت مستقيم.

ومن مشكلاته ما هو عاطل مفتعل... ومنها ما هو مبهم غفل.

ومن هنا كانت الضرورة لتمحيص هذه المناهج ورسم معالم هذه الآفاق والمشكلات، لتنسرح الأنظار فيه على هدى ونور لا تحتجنها الزوايا والمنعطفات.

ومن هنا أيضاً كانت الضرورة لأن تجيء هذا العمل في أهله: اعتصاراً لثقافة عريضة جامعة ونتاجاً لتجربة طويلة صادقة.

ولقد كان!

. . . في هذا البحث.

ولذا لا ترانا بحاجة إلى التعريف بصاحبه. ولأنه ـ قبل ذلك ـ أشهر من أن يعرّف.

للحق والتاريخ . . . لا للرياء والمجاملة.

«الناشر»

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة تمهيدية

أ ـ تعريف التفسير لغة واصطلاحاً:

التفسير لغة هو الكشف أو الإبانة أو الظهور، والتأويل برادفه على رأي، وعلى رأي آخر أنه يغايره، لأنه مشتق من «الأول» بوزن القول وهو الرجوع.

وفي حقل القرآن التأويل هو الرجوع إلى وجه من عدة وجوه يحتملها الكلام لدليل يسند اختيار ذلك الوجه وعلى هذا فالتفسير هو ما يرجع للألفاظ، والتأويل هو ما يرجع للمعاني.

وفي اصطلاح المفسرين عرف التفسير بتعاريف كثيرة كلها تقريبية ليست جامعة ولا مانعة، وذلك لدخول كثير من العلوم والقيود في ماهيته على آراء وخروجها في آراء أخرى، فيختلف المفهوم على هذا سعة وضيقاً. ولعل أقرب التعاريف

هو ما عرفه به أبو حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط حيث قال: هو علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الافرادية والتركيبية ومعانيها التي هي عنها حالة التركيب و تتمات ذلك.

ب ـ أقسام التفسير الرئيسية

وأقسامه الرئيسة قسمان:

١ ـ (التفسير بالمأثور):

من معرفة الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، ومعاني الآيات، وأقسام القراءات، وقصص الأمم، وأخبار الملاحم، ونظائر ذلك مما يؤخذ عن طريق الآثار المنقولة عن السلف.

٢ ـ (تفسير بالاجتهاد):

وهو ما يصل إليه المفسر الجامع للشروط عن طريق النظر والاستدلال، كاستنباط الأحكام الشرعية عن أدلتها من القرآن، وعلى العموم ما يستند إلى بذل الجهد وإعمال الرأي والفكر ضمن نطاق الأدلة.

وواضح أن هذا ليس من التفسير بالرأي المنهي عنه، لأن ذلك يقصد منه ما يكون تفسيراً من مفسر ليس بجامع

للشرائط أو من جامعها ولكنه يميل مع الهوى ويفسر بالرأي والاستحسان .

ج ـ أهداف التفسير:

أهمها: الوصول إلى فهم المضامين التي أرادها الله تعالى في كتابه الكريم، ومعرفة ما افترض الله تعالى على عباده وهي أهم الغايات بالإضافة ألى آثار هامة أخرى تترتب على ذلك.

ولا شك أننا في سبيل فهم مضامين القرآن نحتاج إلى التفسير باعتباره الوسيلة التي توصلنا إلى معرفة المحكم والمتشابه والمجمل والمبين وحكمه وعلله وفرائضه وسننه . . الخ .

د ـ المقصود بالتفسير العلمي:

وصفنا التفسير الذي ندعو إليه بالتفسير العلمي، ولإيضاح المقصود نقول: العلم كما يعرفونه هو «حصول صورة الشيء في الذهن أو في العقل»[1] وهو «إدراك الشيء بحقيقته»[2].

فالادراك بناءاً على التعريف يقع على المدرك ذاته، وهذا

---

(١) انظر منطق المظفر جـ ١ ص ٦ ط النجف ١٣٧٧ .

(٢) المنجد ط بيروت ص ٥٥١ ط سنة ١٩٥٦ .

هـو جوهـر التعـريف أي لا غـير المـدرك ولا انقص في المـدرك ولا أزيـد منه، فـإذا قال العنـوان (تفسير علمي) فـالمقصود أن التفسـير يجب أن يكـون للقـرآن لا لغـير القـرآن بـدعـوى أنـه القرآن، ولا أزيد منه، ولا أنقص منه.

وسنحـاول ايضـاح الفكـرة عن هـذه الأقسـام التي ذكـرتها وهي ثلاثة، أولها تفسير غـير القرآن بـدعوى أنـه القرآن، وقـد يبدو هذا غـريباً فكيف يفسر غـير القرآن بـدعوى أنـه القرآن، بيد أننا بقليل من التأمل سنرى أن هـذا يبدو واضحـاً فيما يـلي من أنواع التفاسير الآتية.

هـ ـ أنواع التفسير اللاعلمي:

١ ـ التفسير الذي يدخله الأيديولوجي:

أو قل الذي يتأثر بنـزعة خـاصة، وذلـك أن المفسر يفترض مسبقـاً رأياً خـاصـاً ثم يبـدأ بتفسـير الآيـة عـلى ضـوئـه، وإذا استعصت جرها جراً وتعسفـ في تطويعهـا لما افتـرضه من رأي سلفـاً، فالآيـة تفسر تبعاً لمـا في ذهنه من المعنى لا أنـه يتبع مـا تقود إليه الآية في مضمونها.

وحيث ذكرنا في تقسيم التفسـير بأنـه قسمان تفسـير بالمـأثور وآخر بالجهد وأعمال الفكر والرأي، فإن الأيديـولوجي يحصـل

في القسمين، أما في الرأي فواضح لأنه يميل مع الهوى والنزعات، وأما في المأثور فإنه يختار من المأثور ما يميل إليه وان كان غيره ألصق بالآية وأقوى ظهوراً وأكثر تمشياً مع خطوط الشريعة العامة.

ويختلف الأيديولوجي الذي يفرضه مسبقاً، فقد يكون نزعة مذهبية عقائدية، أو منهجية صوفية أو نظرية علمية باختلاف مجالات العلم، وكون الأيديولوجي يتصور في هذه الفروع ليس معناه أن القرآن الكريم يخلو من جذبات روحية صوفية، أو قابلية لتحمل عديد من وجوه المعاني، أو اشارة إلى قانون علمي أو سنة كونية، ولكنه على ذلك لا يتخصص لواحد منها، فليس هو بالمؤلف الذي يعني بالجدل خاصة، أو بالتخصيص في الطرق الصوفية، أو بالكون ضمن نطاق المختبر يضع الأسس للفيزياء والكيمياء ـ كما قد يتصور البعض الذين ذهب إلى ذلك في كثير من حسن النية كما سيمر علينا.

وعلى كل فإن المفسر في هذين الحقلين وباختلاف الفروع التي يمارس التفسير فيها إنما يفسر ما افترضه مسبقاً وسلفاً دون ما يؤدي إليه لسان الآية، وواضح أن هذا التفسير تفسير لغير القرآن بدعوى أنه تفسير للقرآن.

٢ ـ الزائد على القرآن وليس منه، وأقسامه كالآتي:

أ ـ إقحام بعض النظريات العامية من مختلف مجالات العلم ـ كالفيزياء والفلك والاحياء وغيرها ـ في مضامين بعض الآيات استناداً لشبهة لفظية أو مضمونية لا تصل إلى مستوى الدليل، وسنمثل لذلك.

ب ـ التوسع فيما له منشأ انتزاع وعدم الاقتصار على مؤداه، بل يتخذ منطلقاً للتوسع غير المشروع ومجالاً لترتيب حشد من النظريات عليه بدون مبرر علمي.

جـ ـ تفسير بعض الآيات وترجمة مضامينها بما هو بعيد عن أهداف القرآن، استناداً إلى ما ينقدح في ذهن المفسر عن آية ما، وليس لذلك الانقداح من صلة بالآية إلا دعاوى الالهام والكشف الذي قد يعتبره البعض وجهاً من وجوه التفسير أو طريقاً معترفاً، وإنا أدرجناه في الزائد على القرآن لهذا الاعتبار المدعى وإلا فهو في باب غير القرآن ألصق.

٣ ـ الناقص عن القرآن الذي لا يستوعب مادته بالشرح ولا يجلي أهدافه، وأقسامه هي:

أ ـ ما يغفل عنصر الأبدية في القرآن الذي يستلزم أن يكون فيه زاد لكل جيل وعطاء لكل فترة ومرونة تحفظ له

جدته وخلوده ولصوقه بحاجات المجتمع تلو المجتمع والجيل بعد الجيل، حيث يأخذ منه كل جيل بقدر ما تنهض به وسائله وما تحمل من استعداد للتزود منه، وهي خاصة موجود في كثير من مضامين القرآن كما هو، واضح من سماته. ذلك لأن القرآن يضع المفاهيم الثابتة للثابت من الحقائق الكونية، والمفاهيم المتطورة لغير الثابت مما يمكن أن يأخذ أطواراً وحالات مختلفة كما سيمر علينا.

والمفسر هنا، وفي هذا القسم بالذات - أعني القسم المتطور - يقصر مداليل الآيات على معاني يقطع بأنها هي المرادة لا غيرها، وهو بذلك يوصد باباً للفكر ويحكم على المنبع الثر بالانقطاع وعلى دفق الشعاع بالنضوب، وبالتالي عدم استيعاب القرآن بالشرح لأنه بصورة مباشرة أهمل وجوهاً أخرى وأبعدها عن مصدرها بدون مبرر غير ضيق الأفق.

ب - إغفال ما قد يتصوره بعض المفسرين بأنه ليس محلا للابتلاء، أو أنه من الأمور الثانوية، أو أنه ترف في أمثال هذه المواضيع ونافلة، اللهم لا الشروح اللفظية أو الاشارة إلى المعنى بتركيز شديد جداً، وخذ لذلك مثلاً: الرق، أو الاقتصاد، أو نظرية الحكم، وغير ذلك من الأمور الهامة بالفعل.

جـ ـ إهمـال كثير من مضـامين القـرآن الكريم بـدعوى أنها مما استأثـر الله تعالى بعلمـه، فإذا قيـل إن وضعها بـالقرآن إذاً مـا هو مبـرره تأتي أجـوبـة ليست بنـاهضـة، وقـد تكـون تلك الأمور من الأعمدة الفقرية في الكتاب العزيز.

وستأتي الاشارة إلى ذلـك انشاء الله بقـدر ما يتسـع له هـذا البحث المختصر(١).

وفي نهاية هذه المقـدمة القصيـرة لا بد من الاشـارة إلى أمور ذات صلة بالبحث يستحسن ذكرها، وهي:

أولاً: قـد تبدو التفـاسير في نـظر البعض ناقصـة من أمور، وقد يكون ذلك مما ليس في وسـع المفسر: إما لأنـه قد وجـدت وسـائل ومعلومـات لم تكن في عصره وكـانت في عصر النـاقـد، وإمـا لأن المفسر غفل عن بعض مـا لم يغفـل عنـه النـاقـد، أو لأنـــه أحسن الـــظن فيـمـن روى عنـــه خبـــراً أو رأيـــاً ليس بـالمستقيم. ومـا ذلـك لقصـور في التنقيب أو التقييم، بـل لأن المروي عنه حاذق ومتمرس في الدس والحبك، أو غير ذلك.

---

(١) راجـع في تقسيمات التفسـير ومعانيـه ما يـلي: التفسـير والمفسـرون للذهبي جـ١ ص ١٩ طبـع مصر ١٩٦١، وانـظر تفسـير البحـر المحيط لأبي حيـان الأنـدلسي جـ١ ص ١٣ ط أوفسـت مصر ١٣٢٩ هـ، والـبيـان لـلسيـد الخوئي ط النجف ١٣٧٧ ص ٤.

كل ذلك لا يعني أن العلماء قصروا في هذا الميدان. كلا بل إن جهودهم أقل ما توصف به أنها جبارة، ولكن لقدرة البشر حدود والكمال لله تعالى.

ثانياً: إننا ننحو باللائمة على كثير من المفسرين لأنه صبغ التفسير بمزاجه الذهني وما مال إليه طبعه من فلسفة أو لغة، أو بديع أو غير ذلك. وقد تكون هذه الظاهرة أحياناً تقرب من اللاارادية ولها بجانب كونها فرض ثوب خاص على روض منوع لها مزيتها التي هي كونها مقطعاً من مقاطع أخرى تؤلف كلا هو عبارة عن دائرة معارف لعلوم مختلفة.

ثالثاً: لا ننسى أن التفسير منذ وجد إلى يومنا هذا قام على ممارسة فردية ـ وان كانت على مستويات علمية عالية أحياناً ـ ولكنها على كل حال أشد نقصاً وأقل كمالاً مما لو كانت ممارسة جماعية في حدود التخصص بكل فرع من فروع علوم القرآن، فإنها آنذاك تكون إلى الكمال أقرب بالنظر إلى أنه يكاد يكون من المستحيل على الفرد أن يستوعب فروع المعرفة على نحو كامل. والقرآن الكريم تنوعت معارفه وتعددت حقوله في أبعاد المعرفة، فكيف يتسنى لفرد أن يقوم ولو ببعض ما يطلب في هذا الميدان، ذلك أمر ليس بالمستطاع، لذلك كانت المحاولات كلها نسبية.

رابعاً: يجب أن نشير إلى أن أجل عمل يخدم القرآن الكريم هو توفر التفسير الموضوعي الذي نتصوره بأنه يتكون من حقلين:

أ - الجانب السلبي، ويتلخص باقصاء وإبعاد العوامل التي تؤثر على الموضوعية من شبه، أو عصبية أو هوى أو ما شاكلها من أمور ذاتية تفسد الموضوعية، وذلك قدر المستطاع طبعاً، فإن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وأمر كهذا ليس من السهولة بحيث يسهل التغلب عليه.

ب - الجانب الايجابي، ويتلخص بتقسيم المادة القرآنية إلى مضامينها العلمية، وتوزيعها على الاختصاصيين كل في مجاله، للتوفر على تفسيرها وشرحها، شريطة أن يكون المفسر على مواضعات معينة سنعرض لها في الفصل التالي. وذلك كما يصنع بدوائر المعارف العلمية في عصرنا هذا، حيث تجزأ إلى علومها ويبحث كل علم من قبل ذوي الاختصاص به، وبهذا تتم الموضوعية المطلوبة، وبذلك نخدم القرآن ونسمو به عن الخبط والهلوسة أو التطفل العلمي، مما يؤدي مكان القداسة في شعور المسلم، وهو يرى صنوفاً من اللاعلمية واللاموضوعية تأخذ طريقها إلى أقدس أثر بدوافع دعائية أو تجارية رخيصة.

وإذا ما تم ذلك فستقع العين على أروع الكنوز وأصفى المنابع التي ظلت مطمورة ومظلومة تصدى لها أعداؤها وبعض ابنائها بالقول أنها وصفة محدودة جاء بها محمد (ص) لمجتمع بدوي ذهبت بذهابه، فهي افراز لوضع ووقت معين انتهى حيث انتهى سببه.

وحيث إننا نؤمن أولاً وقبل كل شيء بأن القرآن الكريم جاء وسيظل نوراً يهدي الإنسانية في مسيرتها حتى لحظاتها الأخيرة إلى ما فيه خيرها في الدنيا ونعيمها في عالمها الثاني، فإن كل غال يهون بذله في أي خدمة تتصل بهذا المضمار الذي يوصلنا للأخذ من القرآن ويؤهل الدنيا لترى المجتمع القرآني الذي من القرآن يأخذ وبنوره يهتدي ومن نميره ينهل، كما وصفه تعالى بقوله: **﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾** ٢ ـ ٥ سورة البقرة.

الفصل الأول

العناصر والاتجاهات الشاذة في التفسير والاخطاء المنهجية فيه

أجملت في مقدمة البحث أقساماً ثلاثة ذكرت أنها تتوزع على أبعاد التفاسير الموجودة فعلاً، فقد ينال بعض التفاسير قسم منها أو أكثر أو أقل، ولكن القدر المتيقن هو أنه لا يخلو تفسير من بعضها. وقد آن الأوان لبيان ما أجملناه في المقدمة بشرح يستوعب الأقسام المذكورة وفق تسلسلها الوارد في المقدمة مراعين الاختصار في تقديم بعض النماذج للتدليل.

القسم الأول

هو الذي عنونته بتفسير غير القرآن على أنه القرآن، وهو التفسير الذي تفترض فيه ايديولوجية خاصة سبقاً وسلفاً وتكيف الآية بمضامينها وفق تلك الصفة المطلوبة..

نماذج منه

أ ـ افترض بعض الرواة والمفسرين سلفاً كفر أبي طالب عليه السلام إما لجهل أو لعناد أو لحسن ظن بمن روى ذلك، وعلى ضوء هذا الافتراض صار يفسر بعض الآيات ومنها قوله تعالى: **﴿وهم ينهون عنه وينأون وان يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾**[1] فذكر عن عطاء ومقاتل أنها نزلت في أبي طالب عم النبي (ص) لأنه كان ينهي قريشاً عن ايذاء النبي ثم يتباعد عنه.

وهذا تفسير أملته صفة معينة ولم تفسر فيه الآية بل فسر ما في نفس المفسر، وسبب بطلان هذا التفسير وجوه:

أولاً: إن الآية مرتبطة بما قبلها، وهو قوله تعالى: **﴿ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤك يجادلونك يقول الذي كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين * وهم ينهون عنه﴾** الخ.

وقد نص المفسرون أنها نزلت في بعض مشركي قريش وهم أبو سفيان والوليد بن المغيرة وعتبة وشيبة ابني ربيعة وغيرهم.

---

(١) سورة الأنعام: ٢٦.

ولا يخفى أن الوليد هو أبو القائد الإسلامي خالد، وان أبا سفيان هو أبو معاوية خال المؤمنين، فلا بأس بنقلها إلى أب علي بن أبي طالب عليه السلام.

ثانياً: إن الآية تحدثت عن جماعة ولم تتحدث عن واحد، وقد يعبر عن الفرد بصيغة الجمع في مقام التعظيم، وليس المقام هنا مقام تعظيم، وهذا قرينة على تأييد القول السابق.

ثالثاً: إن قوله تعالى: ﴿وان يهلكون إلا أنفسهم﴾ راجع إلى جميع ما ذكر في صدر الآية، يعني أن كونهم ينهون عنه وينأون عنه سيؤدي بهم إلى الهلاك، وقد افترضنا أن أبا طالب ـ كما يقول عطاء ومقاتل ـ كان يمنع قريش عن إيذاء النبي، وهذا العمل لا يستحق به هلاك النفس بل يستحق به الثواب، فكيف يحمل على الهلاك[1].

وقد ناقش بعض المفسرين هذه الدعوى ورد القول بنزولها في أبي طالب، والبعض الآخر فسرها على أنها نازلة في المشركين.

ب ـ افترض جماعة من الناس لسبب من الأسباب أن بعض ائمة المذاهب الإسلامية كالشافعي وغيره تأخر في بطن

(١) انظر تفسير الرازي ج ٤ ص ٢٧ ط مصر ١٣٢٤ ومجمع البيان ج ٢ ص ٢٨٧ ط طهران، وصفوة البيان لمعاني القرآن ج ١ ص ٢١٩.

أمه مدة أكثر من مدة الحمل الاعتيادية، وقد اختلفوا في تقديرها بالنسبة للمورد خاصة ولبقاء الجنين في بطن أمه بصورة عامة، حتى جوز بعضهم بقاء الجنين في بطن أمه ثمان سنين أو أكثر، وهي مأساة تترتب عليها مجموعة من المآسي والآثار، لأن معنى ذلك أنه لو توفى زوج امرأة وجاءت من بعد ذلك بثمان سنين بطفل فستأخذ ميراثه، أو لو ادعت الحمل أو شك في أنها حامل من بعد وفاته كأن ينقطع عنها الدم لسبب من الأسباب فلا بد من أن تعتد هذه المدة ما دام الاحتمال موجوداً بحملها، لأن اجماع المذاهب الأربعة على أن عدة الحامل المتوفى عنها زوجها بالوضع[1].

وعلى كل حال، بعد أن افترض جماعة هذا الافتراض اضطروا لتفسير قوله تعالى في الآية الخامسة من سورة الأنعام ﴿**لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء**﴾، قالوا إنه قد يبقيه أقل مدة الحمل، وقد يقره أي يبقيه في الرحم مدة تصل إلى أربع سنين أو أكثر[2].

وهو قول لا يؤيده العلم ولا العادة ولم يقع بهذه المدة ولو مرة واحدة على سبيل الشذوذ.

---

(١) انظر رحمة الأمة في اختلاف الأئمة ط مصر ١٩٦٠ ص ٢٤٠.

(٢) انظر الكشاف ج ٢ ص ٥٠ ط بولاق ١٢٨١ هـ وتفسير الرازي ج ٦ ص ١٤٥ ط مصر الاشرفيه ١٣٢٤.

ج - افترض بعضهم سلفاً أن بعض كلمات القرآن لا تؤدي المعنى الذي وضعت له، أو تؤدي المعنى الموضوعة له ظاهر ولها معنى آخر، وذلك أنها تقطع إلى مقاطع يستقل كل مقطع بما يؤديه من معنى، سواء كان المعنى خبراً أو مغنى عرفانياً.

وعلى ضوء ذلك شرع يفسر بعض الآيات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**الله لا إله إلا هو الحي القيوم**﴾ إلى قوله: ﴿**من ذا الذي يشفع عنده إلا بأذنه**﴾[1] الخ فقطعها كما يأتي: قال «من» اسم موصول بمعنى الذي وحذف الألف من «ذا» وجمع الذال مع لام الذي بعد حذف الألف من «الذي» أيضاً، فصارت «من ذل» و «ذي»، ثم قطع «يشفع إلى «يشف» ع» وقال معنى ذلك من ذل ذي يعني اشارة للنفس فمن ذلها يشف من كل داء نفسي ع، أي فعل أمر من الواعي، فكأنه قال: يا أيها القارىء انتبه ان ممن ذل نفسه شفي من الأمراض النفسية[2].

ولست أدري لماذا ترك باقي المقاطع، وأغلب الظن أنه قطعها ولكن لم يجد لها معنى بعد التقطيع فسكت، وإلا فلا

---

(١) سورة البقرة الآية ٥٥.

(٢) انظر مجمع البيان ج ١ ص ٣ المقدمة ط طهران أوفست ١٣٧٩ هـ.

موجب للاقتصار على جزء من الآية وترك باقي الأجزاء، لأنه ترجيح بلا مرجح. اللهم إلا أن يكون المرجح هو أنه وجد لهذا الجزء فقط معنى بعد التقطيع ولم يجد لغيره معنى.

ومن ذلك تفسير قوله تعالى: ﴿كهيعص﴾ مطلع سورة مريم، فقد فسرها بعضهم برواية مرسلة لا يعرف قائلها وأسندها إلى الإمام الثاني عشر، وهي: إن الكاف كربلا والهاء هلاك العترة، والياء يزيد، والعين عطش الحسين، والصاد صبره. وذكر أن زكريا سأل الله أن يعلمه أسماء أهل البيت الخمسة الطيبين، فعلمه اياهم، فكان إذا ذكر الحسين يستعبر فأنبأه عن قصته بما مر ذكره من تفسير كهيعص[1].

مع أن رأي أهل البيت عليهم السلام في الحروف المقطعة في أوائل السور معروفة، وهي أن قريش لما كذبوا القرآن وقالوا إنه من محمد، أراد الله تعالى أن يبين لهم بأن القرآن مؤلف من نفس حروف الهجاء التي تتكون منها لغتكم، ومحمد بشر وأنتم بشر، فهاتوا مثل هذا القرآن إذا كان من بشر مثلكم ومن نفس حروف لغتكم. وهذا الرأي مروى عن الإمام العسكري في تفسيره.

ويذهب فريق آخر من المفسرين إلى أن هذه الحروف هي

---

(١) انظر تفسير مقتنيات الدرر للحائري ج ٧ ص ٢ ط طهران ١٣٣٨.

أرقام في صورة الحروف، أو بتعبير آخر هي مدة بقاء هذه الأمة في الحروف الأبجدية، ولذلك يقول مقاتل ابن سليمان: حسبنا هذه الحروف التي في أوائل السور باسقاط المكرر فبلغت سبعمائة وأربعاً وأربعين سنة، وهي بقية مدة هذه الأمة[1]. والأمة باقية بحمد الله تعالى بعد ذلك التحديد الذي حدده مقاتل.

وهذه الأقوال لو صحت روايتها عن معصوم لأمكن التعبد بها إذا لم نجد لها وجهاً، ولكنها والحالة هذه ترسل ارسالاً أو يرويها مجاهيل، فلا يمكن الركون إليها، لأنه تفسير للألفاظ بما لا تدل عليه حقيقة أو مجازاً، وهو يفضي إلى فتح باب لا يغلق من التحكم.

ولماذا لا يكون: الكاف كلام، والهاء هراء، والياء يروى، والعين عي، والصاد صفصطائي.. وهكذا.

افيرضى انسان مسلم أن تفتح أمثال هذه الأبواب على دستوره الذي يرتبط به دنياً وديناً وينهل منه المعارف ويعتقد فيه أنه أقدس رسالة هبطت من السماء.. أجل يجب أن يصان كتاب الله تعالى عن مثل هذا العبث.

---

(١) انظر مجمع البيان ج ١ ص ٣٣ أوفست طهران.

واعتقد أنه قد اتضح فيما قدمت من نماذج ما اسميته بتفسير غير القرآن على أنه القرآن، أو قل بتفسير ما في نفس المفسر بزعم أنه تفسير للقرآن. والمتتبع للتفاسير يجد أن هذا اللون من التفسير شائع في كثير من سور القرآن الكريم وفي مجالات مختلفة.

القسم الثاني

وحيث انتهينا من التدليل على القسم الأول نعود إلى القسم الثاني، والذي عنونته بالزائد على القرآن والذي يحمل على القرآن ونظرت له بثلاثة أقسام:

الأول: إقحام بعض المدلولات العلمية في الفيزياء والكيمياء والطبيعيات أو الأحياء أو غيرها من الفروع العلمية، وذلك بادعاء أنها داخلة في مضامين بعض الآيات ومن ذلك:

١ ـ ما ذهب إليه حفني أحمد في تفسيره للآية السادسة والأربعين من سورة الأحزاب وهي قوله تعالى: ﴿**يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله باذنه وسراجاً منيراً**﴾، فذهب إلى أن هذه الآية تدل على أن القرآن من الله تعالى وليس من محمد كما تقول قريش

وغيرهم، وذلك بتقريب أننا تتبعنا استعمالات القرآن الكريم للضوء والنور فرأيناه يستعمل لفظ الضوء لما يصدر عنه الضوء من ذاته كالشمس، ويستعمل لفظ النور لما ينعكس عليه الضياء كالقمر، فالقمر له نور لا ضوء والشمس لها ضوء لا نور. وبناءاً على ذلك فالقرآن عند ما يقول للنبي (ص) بأنا جعلناك سراجاً منيراً يعني ان رسالتك ليست من عندك بل هي من الله تعالى، لأن صفة منير تعني أنك تكتسب النور من غيرك، هذا ما ذكره وقد ذكرته بالمعنى[1].

مع آن المفسرين في تفسيرهم لهذه الآية الكريمة يذهبون إلى أنه تعالى أراد تشبيه نور النبي (ص) ونور رسالته المعنوي بالنور الحسي في السراج، وجهة الشبه أن نور الرسالة يكشف ظلمات الجهل كما يكشف نور السراج الظلام الحسي، وبعد ذلك فالآية غير ناظرة إلى كون الرسالة من النبي (ص) أو من الله تعالى، مع أنه قد يكون ما ذكره حفني من استعمالات القرآن للضوء وللنور صحيحاً بالجملة ولكن النتيجة التي انتهى إليها حفني غير واردة: إما لأن الآية قد تكون ليست في صدد بيان هذا المعنى كما ذكر المفسرون، أو لأن ما ذكره

(١) انظر التفسير العلمي للآيات الكونية بالقرآن لحفني أحمد ط مصر ١٩٦٠ ص ١٤٨.

لا يطرد دائماً، وذلك أنا رأينا القرآن الكريم يقول واصفاً رسالة موسى وهارون في الآية الثامنة والأربعين من سورة الأنبياء وهي قوله تعالى: **﴿ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياءاً وذكرى للمتقين﴾** فجعل رسالتهما شبيهة بالضوء الذي يصدر من ذات الجسم كما يقول حفني، مع أن رسالتهما أو قل كتابهما ليس منهما بل من الله تعالى، فينبغي على قوله أن يرد الأشكال لمكان جهة الشبه بين المشبه به والمشبه، وهي صدور الضوء من الذات.

وبالعكس فقد رأينا القرآن يستعمل النور فيما يصدر عن الذات، وذلك كقوله تعالى في الآية السابعة عشرة من سورة المائدة واصفاً وحيه إلى أنبيائه: **﴿قد جاءكم من الله نور﴾**، والمراد به القرآن، والآية صريحة في أنه صادر من الله تعالى، مع أن حفني افترض أن القرآن يستعمل لفظ النور فيما ينعكس لا فيما يصدر عن الذات.

٢ ـ ومن ذلك ما فسر به بعضهم قوله تعالى في سورة المرسلات: **﴿المرسلات عرفاً * فالعاصفات عصفاً * والناشرات نشراً * فالفارقات فرقاً * فالملقيات ذكراً * عذراً أو نذراً * إنما توعدون لواقع﴾**.

فقال: هذا وصف علمي دقيق للطائرات الحربية الحديثة

بمختلف حركاتها وبجميع أفعالها، فهي تعصف بقنابلها كالحميم، وتترك الناس كالعصف المأكول وفي اثناء قيامها بذلك تنشر المنشورات وتلقيها على الجنود وعلى غيرهم في ميادين الحرب وعلى الأهالي والسكان المدنيين للأخبار بما تريده الدولة المحاربة، وتمزق بصولتها الجبارة بين الكتائب والفصائل والتجمعات مزقاً، حيث إنه لا يستقر تحتها ولا يثبت أي جمع، بل لمجرد رؤيتها يتفرق الناس ويختفون في الكهوف والملاجىء والمخابىء فالملقيات ذكراً يعني ما تذكره وما تقصده منشوراتها وما تريد ذكره عذراً أو نذراً تعتذر عن إلقاء الدمار والتخريب على الأماكن البريئة كالمساجد والمعابد والمستشفيات والأطفال.. الخ[1].

٣ ـ ومن ذلك ما ذهب إليه الشيخ طنطاوي جوهري عند تفسير قوله تعالى في آخر آية ص ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾، فقد قال: وهذه الآية شرحها طويل فمن نبأ القرآن هذه الأمة الإسلامية المترامية الأكناف التي تبلغ الآن ـ في ايامه طبعاً ـ نحو ٣٥٠ مليون من المسلمين أفليس هذا من أعظم انبائها، ومن نبأ القرآن العلوم التي اكتشفها الناس حديثاً، وكيف جاء علم الأرواح الحديث مطابقاً لهذا القرآن، وان هذه الأرواح

(١) انظر الجانب العلمي في القرآن للدكتور صلاح الدين الخطاب ط مصر ١٩٧٠ ص ١٧.

بعد الموت احياء وان من الأرواح من هم مغرمون بالمادة والحياة والصيت والذكر في هذه الدنيا، وهؤلاء يكونون بعد الموت مجذوبين إلى المادة معذبين بذلك، ومنهم من يكون أرقى علماً وحكمة وأخلاقاً، وهؤلاء يتباعدون عن المادة ويقتربون من ربهم.

إلى أن قال: أفلا ترى أن هذه الأمور المذكورة في هذه السورة قد أصبحت تقال في المجامع النفسية علناً، وهذا هو نفس القرآن، وبعبارة أخرى هو ما في هذه السورة، من كان يظن أن نبأ بقاء الأرواح بعد الموت وحالتها يظهر في الدنيا قبل يوم القيامة[1].

الثاني: ومن الزائد على القرآن ما اسميته بالتوسع فيما له منشأ انتزاع مع عدم وجود مبرر لذلك التوسع، لأنه يصطدم بروح الشريعة وخطوطها العامة وبما هو من ضرورياتها أحياناً. وإنما يتمسك به البعض لوجود موهم من اللفظ أو المعنى، ولأنه يوافق غرضاً للمفسر فيتمسك بذلك.

ونحن نعرف بالضرورة من استقراء أحكام الإسلام ذات العلاقة بالجوانب المختلفة أنه يمنع الاستغلال منعاً باتاً ويشن

---

(١) انظر تفسير الجواهر للطنطاوي ج ١٨ ص ٨٥ ط مصر مصطفى البابي ١٣٥٠ هـ.

عليه حرب لا هوادة فيها، واقصد هنا بالاستغلال معناه التعيني ـ أي الاستثمار بدون مبرر شرعي ـ ومع وضوح هذا المعنى في الأحكام الإسلامية نجد بعضهم يميل إلى شبه تؤدي إلى أن الإسلام يجيز الاستغلال.

١ ـ فمن ذلك ما ذهب إليه بعض مفكري المسلمين في موضوع حرمة الربا، فأرادوا حلاً وسطاً بين تعطل المعاملات وإيقاف الحركة التجارية، وبين صراحة حرمة الربا. فالتمسوا دليلاً في قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾[1].

فقالوا: إن القرآن لم يحرم من الربا إلا ما كان اضعافاً مضاعفة، أي الا ما يصل إلى مثل رأس المال أو يزيد عليه.

مع أن استنتاجهم من الآية لا يمكن أن يستقيم وما قال ولم يقل أحد به، ذلك أن اضعافاً وصف للربا لا لرأس المال، وإذا كان كذلك فينبغي أن لا يحرم من الربا إلا ما يبلغ ستمائة بالمائة ٦٠٠٪، وذلك لأن كلمة اضعاف جمع، والضعف يكون بقدر الأصل مرتين، ومرتين في ثلاثة يساوي ستة، ولا قائل بذلك قط[2].

---

(١) سورة آل عمران: ١٣٠.

(٢) انظر الربا في القانون الاسلامي للدكتور محمد عبد الله دراز مجلة الإسلام السنة ١٣ ص ٦٨ ـ ٧٣.

وبتعبير علمي نقول: إن هؤلاء استدلوا بمفهوم الوصف إذ اعتبروا أن الوصف ـ وهو اضعافاً ـ قيد للحكم وهو المنع بينما هو قيد للموضوع وهو الربا، وبناءاً على ذلك فلا مفهوم للوصف. وحتى لو سلمنا بوجود مفهوم للوصف فهو إنما يكون إذا لم توجد قرينة على خلافه، والقرينة هنا موجودة، وهي أنه أورده مورد الغالب، أي ان الربا ليس دائماً يكون اضعافاً مضاعفة، ولذلك ذهب الطبرسي في مجمع البيان حيث اعتبر الوجه هو تضاعف الزيادة بالتأجيل اجلا بعد أجل[1].

٢ ـ ومن ذلك ما ذهب إليه بعضهم في تفسير الآية الرابعة من سورة النساء وهي قوله تعالى: **﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم﴾** الخ، حيث ذهب إلى جواز أن يتزوج الإنسان تسع نساء، لأن القرآن على قوله قد أجاز ذلك بعطف هذه الأعداد بعضها على بعض بالواو فالمثنى والثلاث والرباع مجموعها تسعة[2].

مع أن القرآن الكريم لو أراد ذلك لعبر بالرقم الموضوع

---

(١) انظر مجمع البيان ج ١ ص ٥٠٢ ط طهران أوفست.

(٢) انظرمجمع البيان ج ٢ ص ٦.

لهذا العدد وهو التسعة، ولكنه تعالى أراد انكحوا الطيبات معدودات هذا العدد اثنين اثنين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً، وذلك أنه خاطب الجميع كما تقول للجمع اقتسموا هذه الأموال بينكم درهمين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة اربعة للدلالة على جواز كل هذه الوجوه وإنما لم يعطف بأو لأنه حينئذ لا يفيد جواز الاقتسام إلا على أحد هذه الوجوه.

الثالث: ومن أقسام الزائد على القرآن هو ما اسميته بترجمة ألفاظ القرآن بمضامين غريبة وليست مما يستهدفه ظاهر القرآن ولا مما يفهمه العرب وليس فيه نص أو رواية، إنما هو مجرد انقداح معنى أو ومضة في ذهن المفسر تصور أنها تتصل بالآية فبنى تفسيره على هذا التصور.

ومن ذلك ما فسر به بعضهم الآية الثامنة والسبعين من سورة بني اسرائيل وهي قوله تعالى: ﴿**أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً**﴾، حيث فسر ذلك بأنه يجب نصب الإمام عند زوال شمس النبوة[١].

وقد اتضح فيما مر من النماذج التي قدمتها في القسم الثاني الذي اسميته الزائد على القرآن كيف أنها ليست من طبيعة

---

(١) مجلة المرشد للشهرستاني السنة الثالثة ص ١١٦.

القرآن وغريبة عن مادته وأسلوبه، وقد تقول: إن هذا القسم لا يختلف عن سابقه في كونه ليس من القرآن فلماذا هذا التقسيم إلى القرآن كما اسميت القسم الأول، وإلى الزائد على القرآن كما اسميت القسم الثاني؟

وللإجابة على ذلك أقول:

إني لم أرد أن أجعل من كل من العنوانين حداً جامعاً مانعاً، وإنما أردت من كل عنوان منهما أنه ناظر إلى ناحية في المعنون، فالأول كان المفسر فيه يفترض مسبقاً معنى من المعاني ويجر الآية إليه وان كان في الآية محط قدم له ولكن الملحوظ أنه يفسر ما في ذهنه ويحمل الآية على ذلك، أما القسم الثاني فبالعكس حيث يتبع منشأ الانتزاع في الآية ولكنه يتوسع فيه بما لا مبرر معه.

القسم الثالث

الذي اسميته التفسير الناقص عن استيعاب محتويات القرآن الكريم وعن استيعاب خواصه، وقد قسمته إلى ثلاث شعب:

الشعبة الأولى

ما يغفل عنصر الأبدية في القرآن الكريم، ومعنى ذلك أننا

نرى بعض المفسرين إذا فسر آية وذكر لها وجهاً أو وجوهاً يترك الباب مفتوحاً ولا يوصده، فيقول والله أعلم بمراده ولا يبت فيما ذهب إليه، وهذا في بعض الآيات مما لا يصل إلى حد المحكم أو النص أو ما يقرب منهما في الظهور.

وهذا هو الذي أردته عندما صدرت لهذا القسم بالمقدمة فقلت: إن مرونة القرآن الكريم واحتمال آياته لكثير من المعاني أو صلاحيته للتطور ـ على حد تعبير بعضهم ـ المراد منه أن ذلك على نحو الايجاب الجزئي، ولبعض الآيات التي يكون فيها الموضوع متطوراً كما سنمثل له قريباً. أما الآيات الصريحة والقاطعة الدلالة فلا سبيل إلى وصفها بغير ذلك. والحقيقة أن هذا المعنى من الأمور الهامة في القرآن الكريم والتي تستأهل أن يكتب فيها الكثير ولكن لا بأس من الاشارة إليها بما يتسع له البحث فنقول:

إن القرآن أولاً وقبل كل شيء هو كتاب تربية وتقويم لأن الله تعالى رب العالمين المربي لهم والمقوم، ووسيلته الأولى في التربية كتبه المنزلة، وأهمها القرآن الكريم. فهو يربي ويسعد وينظم العلائق لتؤهل الفرد والمجتمع للسعادة في الدارين. وهو هدف واضح في كل الأحكام التي هي روح القرآن ومن هنا يحمل المفسرون كل إطلاق يوهم خلاف هذا على هذا المقيد. يقول الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿ما

فرطنا في الكتاب من شيء﴾[1] يتساءل كيف يكون كذلك مع أنه ليس فيه تفاصيل علم الطب والحساب والهندسة و. و. الخ. ثم يجيب على هذا التساؤل فيقول إن الكثير من آيات القرآن دالة بإحدى الدلالات الثلاث على أن القرآن المراد منه معرفة أمور الدين ومعرفة الله تعالى وأحكامه، فإذا كان هذا التقييد معلوماً لكل المسلمين فيجب أن يحمل ذلك الإطلاق على هذا التقييد[2].

وحيث كان القرآن الكريم كتاب تربية بالدرجة الأولى فالتربية بكل أقسامها الروحية والبدنية والاجتماعية وغيرها تعتمد على نوعين من الحقائق ثابت ومتطور، فمثلاً إن وحدانية الله تعالى من الحقائق الثابتة في الكتاب الصريحة يقول تعالى: **﴿قل هو الله أحد﴾**[3] وصراحتها هنا هي الضمان لعدم انشطار الشخصية المتأتي من تعدد الالهة وما يترتب عليه من تهافت، ومن الوسائل التي تحقق تربية نفسية وجسدية صوم شهر في السنة، وقد جاء به القرآن هكذا لأنه موضوع بأزاء حقيقة ثابتة، وهي الانسانية بخصائصها الجسدية والروحية، فالجسد هو الجسد مهما تطورت الدنيا

---

(١) الآية ٣٨ من سورة الأنعام.

(٢) انظر تفسير الرازي ص ٤٠ ج ٤ ط مصر ١٣٢٤.

(٣) الآية الأولى من سورة الاخلاص.

ونوازعه نوازعه مهما لبست من أثواب، لذلك كان العلاج ثابتاً وهو ﴿**فمن شهد منكم الشهر فليصمه**﴾[1] في حين هناك وسائل للتربية في حقول أخرى تقتضي التطور، فوضع الحكم المتطور بأزائها.

ومن ذلك قوله تعالى في الآية: ﴿**وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**﴾[2] فإن الحكم بالعدل من أفعل الوسائل في التربية، ولكن لما كان مفهوم العدل متطوراً لأنه وضع الشيء في موضعه، وضعه الله عز وجل علاجاً لكثير من المشاكل التي تحتاج إلى مرونة وقابلية للتكيف مع جو المشكلة، وليس لذلك إلا العدل. هذا المفهوم المتطور.

وأعود من بعد هذا الاستطراد إلى صلب البحث حيث قلت: إن بعض المفسرين يترك الباب مفتوحاً لمعنى آخر محتمل في الآية والبعض الآخر يوصد الباب ويذكر للآية وجهاً لا يتعداه إلى غيره، وذلك فيما اعتقد لأمرين: الأول غفلته عن كون القرآن زاد الانسانية، فلكل جيل منه حظ ولكل زمن نصيب. والثاني قصور العلم في وقته عن إلقاء الضوء على المفهوم القرآني، ومثال ذلك:

---

(١) الآية ١٨٥ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٥٧ من سورة النساء.

أ - ما ذكره بعض المفسرين عند قوله تعالى في الآية الثامنة والثلاثين من سورة الأنعام: ﴿**وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم**﴾ حيث قصر المماثلة على ما يأتي، فقال: ﴿**الا أمم أمثالكم**﴾ طوائف مختلفة أمثالكم في الخلق والموت، والحاجة إلينا في الرزق والتدبير في جميع أمورها، والدلالة على كمال القدرة وبديع الصنعة في تسخيرها وتصريفها بقدرتنا[1] هذا كل ما ذكره في المماثلة.

ويقول آخر عن هذه المماثلة ما يلي: أمم أمثالكم مكتوبة أرزاقها وآجالها وأعمالها، كما كتبت أرزاقكم وآجالكم وأعمالكم[2].

وإذا كان الزمخشري يقتصر من المماثلة على كتابة الأرزاق والآجال والأعمال فقد يعذر لخلو عصره عن كثير من المعارف التي جدت في دنيا الحيوان بكل صنوفه، ولكن مثل الشيخ حسنين لا يعذر لأنه في عصر كثرت فيه هذه العلوم وفي بلد سبق البلدان العربية والإسلامية الأخرى إلى العلوم الحديثة، ونراه مع ذلك يقصر المماثلة على أمور لا يختص بها الحيوان

---

(١) انظر صفوة البيان لمعاني القران للشيخ حسنين محمد مخلوف ج ١ ص ٢٢٢ ط مصر ١٩٥٦.

(٢) انظر الكشاف ج ١ ص ٢٣٨.

بل تعم النبات كذلك، وقد تعم ما نسميه بالجماد بنحو من الانحاء، إنه بذلك يغفل عن الجانب المشرق من جوانب الآية الكريمة وكل جوانب الآيات مشرقة، وذلك الجانب هو المماثلة من حيث كثير من أنماط السلوك المشتركة ومن حيث حاجة كثير منها إلى الرعاية والحنان، ومن حيث تحملها للمسؤولية أحياناً كما هو مفاد حشرها يوم القيامة. و. و. إلى غير ذلك من وجوه المماثلة التي كشف عنها العلم والتي سينكشف منها الكثير أيضاً.

ومن ذلك أيضاً ما ذهب إليه بعض المفسرين في تفسير الآية الثانية والثلاثين من سورة الحج وهي قوله تعالى: ﴿**ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب**﴾ حيث قال: أي ذكر القلوب، لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء[1].

وهذا الجزم بأن القلب مركز التقوى يثير السخرية في نفوس المتأخرين ممن عرف بالبراهين والتشريح أن القلب ليس إلا مضخة للدم وان مركز كل الفعاليات الذهنية هو المخ.

إن القرآن الكريم يعبر بالقلب عن العقل لأنه يخاطب العرب حيث نزل بلغتهم وهم يعبرون عن العقل بالقلب،

---

(١) انظر الكشاف ج ٢ ص ٥٥ ط مصر ١٢٨١ هـ.

فإن شاعرهم زهير يقول:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده
فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وقد يعذر الزمخشري لما أسلفنا من خلو عصره من المعلومات، ولكن لماذا يذهب المتأخرون إلى نفس المفارقة.

وعلى كل حال أرأيت هذا الجزم والحصر من الزمخشري بقوله: إنما ذكر القلوب لأنها مراكز التقوى، ولم يترك مجالاً لأي احتمال آخر قد يكون ذكر القلب لأجله.

ونظائر ذلك كثير عند المفسرين حتى المتأخرين منهم الذين يعيشون وثبات التكنولوجيا وقفزاتها الجبارة، وهم مع ذلك قد يقصرون في تفاسيرهم القرآن على حضارة عصرهم غير ملتفتين إلى أنه معد لكل الأجيال، فلا بد أن يأخذ كل جيل منه جديداً ويكون أخذه حسب استعداده قال تعالى: ﴿**أنزل من السماء ماءاً فسالت أودية بقدرها**﴾[1].

الشعبة الثانية

ما أسميته إغفال ما يتصوره بعض المفسرين بأنه ليس محل

---

(1) الآية ١٩ من سورة الرعد.

ابتلاء، ذلك أن بعض الباحثين في القرآن درجوا على أن يبحثوا منه ما هو محل حاجة في عصرهم، ومن الملاحظ الآن أن الفقهاء عندما يبحثون مواضيع الفقه لا يبحثون بعض المواضيع التي هي ليست محل حاجة فعلية بغض النظر عما إذا كانت محل حاجة مطلقاً، والحقيقة أن بعض المواضيع التي لم تبحث تركت ثغرة بارزة وتساؤلا على شفاه الكثيرين من المعنيين بشؤون الإسلام. فهم يعلمون مثلاً أن الإسلام ـ فضلاً عن الجانب النظري ـ قد حكم فعلاً وكانت له تجربة فريدة في الحكم، وقد دللت التجربة ذاتها على كونها في منتهى النضوج والتكامل، فلماذا لم تدون الخطوط العامة لنظريته في الحكم والأسس التي تستند إليها النظرية، ولماذا أهمل المفسرون وهم على تحاسس مباشر للقرآن وليس بينهم وبين النظرية من واسطة إلا القرآن ـ بخلاف الفقهاء إذ أنهم يتصلون بمصادر التشريع الآخر في استدلالهم: نظرية الحكم ولم يجلوها تجلية كاملة سوى إشارات لم تتصل حلقاتها ولم تملأ الفرج بينها ولم تصل إلى مستوى النظرية الكاملة.

وبتعبير آخر: إن نوع نظام الحكم في الإسلام لم يجل تجلية كاملة فيصل إلى صيغة مقبولة من كل الأطراف. ولهذا نجد أن هذه المسألة بالذات لم تلتمس أصولها بنحو كامل من

القرآن، بل حاول البعض أن يجد مصادرها في السنة وفي حكم العقل، مع أن مسألة كهذه ليست بهذه الدرجة من البساطة حتى يهملها القرآن، وهي من أكبر أهدافه إن لم تكن أكبرها من بعد مباحث الوجود والتوحيد، لأن النبوة والامامة صنوان وملاكهما واحد. والنظرية بعد ذلك توجد مقوماتها كاملة ـ وان أجملت ـ في القرآن، ولكن لم تتوفر العناية الكاملة على بلورتها وشرحها.

ولعل ذلك من الأسباب التي أدت إلى هذا الاختلاف في نوع نظام الحكم عند مفكري المسلمين: فالشيعة مثلاً يذهبون إلى أن الإمامة لا تكون إلا بالنص والجعل من الله ولهم أدلتهم على ذلك وبأن الإمام منصوص عليه ومعصوم ومسلح بالمعجزة وأفضل أهل زمانه، وقد استدلوا لذلك بالنقل من القرآن الكريم[1] وبالعقل والأخبار[2] وقد نقل عنهم رأيهم في ذلك العلامة ابن خلدون في مقدمته حيث قال:

---

(١) انظر تفسير قوله تعالى: ﴿**إني جاعلك للناس إماماً**﴾ الآية ١٢٤ من سورة البقرة في مجمع البيان جـ ١ ص ٢٠١، وانظر نفس المصدر جـ ١ ص ٣٥٢ عند تفسير قوله تعالى: ﴿**قال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً**﴾ الآية ٢٤٧ البقرة.

(٢) انظر علم اليقين ملا محسن الفيض ص ٨٨ ط ايران ١٣٠٣، وأصول الكافي باب الحجة ط ايران سنة ١٢٧٨.

«إن الإمامة ليست من مصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ويعين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز للنبي (ص) إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر، وأن علياً (ع) هو الذي عينه رسول الله صلى الله عليه وآله».

فالإمام عندهم امتداد طبيعي للنبي، فشكل الحكم بالنسبة لنظريتهم - هو الإمام المعين من الله تعالى الذي يحكم في حدود ما رسم له الكتاب والسنة، فسمه إن شئت تيوقراطياً أو غير ذلك. هذا في حال وجود الإمام وفي حالة الغيبة يذهبون إلى حكم الحاكم العادل القائم على ضوء الكتاب والسنة.

أما السنة فإن نظريتهم في ذلك مرت بأشكال وانتهت بعد ذلك إلى حكم الشورى بشكل ليس بواضح تماماً، فإن الشورى المذكورة تتأرجح بين نسب مختلفة في تعيين العدد الذي يمارس عملية الشورى ونوعيتهم، ولكن يمكن القول إجمالاً بأن نظريتهم هي نظرية الشورى[1].

---

(١) انظر التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي - ج ٢ ص ٤ ط مصر دار الكتب، والنظم الاسلامية للدكتور صبحي الصالح ص ٢٤٩ طبع بيروت ١٩٦٥.

وقد استندوا في ذلك على الآية الكريمة الثامنة والثلاثين من سورة الشورى: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ مع أن المفسرين يذكرون أن هذه الآية جاءت في معرض الخبر عن صفة من صفات الأنصار مدحهم الله تعالى بهم بأنهم لا يستبد الفرد منهم برأيه في المشاكل بل يستشير غيره ولا يرون لها صلة بنوع الحكم[1] ولا يرونها ناظرة لذلك من قريب أو بعيد[2].

في حين يذهب جماعة آخرون من الكتاب السنة إلى أن الإسلام ليس له نظرية في أي شكل من اشكال الحكم ومن هؤلاء الدكتور طه حسين في كتابه الفتنة الكبرى، والشيخ علي عبد الرزاق في كتابه الإسلام وأصول الحكم.

وهناك نظريات أخرى ليست بصدد استقرائها، وإنما كان الهدف من المرور بهذه الآراء الإشارة إلى أن عدم تجلية المفسرين لهذه النظرية قد ساعد مع عوامل أخرى في عدم

---

(١) انظر الكشاف للزمخشري ج ٢ ص ٢٩٩ ط بولاق، ومجمع البيان ج ٥ ص ٣٣ ط طهران ١٣٧٩، وصفوة البيان لمعاني القرآن ج ٢ ص ٢٩١ ط مصر دار الكتاب العربي ١٣٧٧ هـ.

(٢) تقريب الاستدلال بآية الشورى هو: بما أن النبي لم ينص على أحد وبما أن القرآن مدح المسلمين بأنهم يتشاورون في الأمور والخلافة من الأمور الهامة فهي تعين عن طريق الشورى أو سمها الديمقراطية.

وضوح شكل الحكم في الإسلام. وهذه النقطة مما يجب أن يتوفر عليها الاختصاصيون للانتهاء فيها إلى رأي معين ضمن نطاق النصوص في ذلك.

ومن هذا القسم موضوع الاقتصاد الإسلامي الذي لم يجمع شتاته ولم تمحص نظريته بشكل كامل حتى من المتأخرين الذين كتبوا في التفسير والفقه، اللهم إلا محاولات لم تتكامل عند الكتاب والمفكرين المسلمين في مختلف بقاع الدنيا، خصوصاً في النصف الثاني من القرن العشرين حيث كتبت في ذلك بحوث في أجزاء من الاقتصاد الاسلامي كل على حدة، والبعض منهم ضغطها بذكر مثال لكل فرع من فروع الاقتصاد مع لفت النظر للمخطوط العامة، وأخص منهم الأستاد محمود اللبابيدي في السنة الثالثة من مجلة رسالة الإسلام، وتوجت هذه المحاولات بعمل نضاج ومشكور للمفكر الإسلامي العلامة السيد محمد باقر الصدر في كتابه اقتصادنا.

ومن هذا القسم أيضاً موضوع الرق في الإسلام، فإنه بالرغم مما كتب فيه بشكل مجزأ لا يزال يحتاج إلى اشباع وبحث شامل لوجهة نظر الإسلام إلى الرقيق ومعالجة تحريرهم.

وهذه النماذج الثلاث التي ذكرتها قد يقول قائل إنها كتب فيها الكثير، وأنا لا أنكر ذلك وإنما أقول: إن كثيراً ممن عالجها ليس من ذوي التخصص في ذلك. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى إنها عولجت خارج نطاق التفسير، والذي نحن بصدده أن يكون مكان هذه المعالجات في كتب التفسير ومن ذوي الاختصاص وبشكل مشبع تتضح معه جوانب النظرية. فأنت تعلم أن الذي يقرأ قوله تعالى: ﴿**فإن لم تستطيعوا أن تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم**﴾ ثم يقرأ تفسيرها بأن الإنسان يجوز له أن يطأ بملك اليمين ما يشاء، فتتضخم عنده المشكلة المزدوجة من جواز أن يسترق الإنسان أخاه الإنسان، ومن أهدار الكرامة البشرية وتشجيع ضراوة الجنس باباحة هذا العدد.

أما لو عالج التفسير المشكلة بأنها لون من ألوان تحرير العبيد وطريقة مهمة في ذلك، وهي استغلال الغريزة لعتق الأم والولد، ومدى صلة ذلك بنظرية الاسلام في المعالجة الهادئة، لكان ذلك مهماً في ازالة الشبه المتولدة عند قارىء القرآن الذي لم يدر في أي كتاب خارجي يبحث عن حل المشكلة، ولعله لا يدري أنها بحثت في مكان آخر.

الشعبة الثالثة

ما اسميته في المقدمة بما يهمل بدعوى أنه مما استأثر الله بعلمه وهذا القسم يقع الكلام فيه بثلاثة أمور:

أولاً ـ وجوده أولاً وجوده في القرآن: وقد ذهب جماعة إلى وجوده في القرآن الكريم وقالوا هو ما عبر عنه بالمتشابه، ومثلوا له بالروح في قوله تعالى: ﴿**فنفخنا فيها من روحنا**﴾[1] ومثلوا له بالساعة، وبالحروف المقطعة في أوائل السور. وقد ذهب لذلك الاحناف وبعض المفسّرين من غيرهم وخالفهم في ذلك جمهور المسلمين من الشيعة والشافعية وغيرهم كما سيمر علينا. وقد استدلوا لذلك بقوله تعالى في الآية السابقة من آل عمران: ﴿**هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلّا أولو الألباب**﴾.

ووجه استدلالهم بالآية الكريمة: هو أنهم يقفون على لفظ الجلالة في المقطع الآتي من الآية: ﴿**وما يعلم تأويله إلّا الله**﴾ ويعتبرون الواو استئنافية في قوله تعالى:

---

(١) الآية ٩١ سورة الأنبياء.

﴿والراسخون﴾، بينما يخالفهم الجمهور فيقفون على كلمة العلم ويعتبرون الواو عاطفة، واكتفي بنموذج واحد من الذاهبين لهذا الرأي وأشير إلى من يشاركهم فيه.

فمن مفسري الشيعة ذهب لذلك الطبرسي في مجمع البيان فاعتبر الوقوف على كلمة العلم والواو عاطفة، وفسر المحكم بالذي لا يحتمل إلا وجهاً واحداً من التأويل والمتشابه الذي يحتمل أكثر من وجه، وقال: ولذلك كان الصحابة لا يتوقفون في تفسير شيء من آي القرآن، وكان عبد الله ابن عباس إذا قرأ هذه الآية يقول: «أنا من الراسخين في العلم»، وكان الإمام أبو جعفر الباقر (ع) يقول: «كان رسول الله (ص) أفضل الراسخين في العلم، قد علم جميع ما أنزل الله عليه من التأويل والتنزيل، وما كان الله تعالى لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله، وهو وأوصياؤه من بعده يعلمونه كله»[1].

وقد فسر الشافعية المحكم والمتشابه بهذا المعنى أيضاً كما حكاه عنهم الشيخ حسنين محمد مخلوف في تفسيره، كما ذهبوا إلى أن المتشابه يتضح معناه بالنظر الدقيق، وهو يشمل المجمل ونحوه، وعلى هذا فالراسخون عندهم معطوفون على

---

(١) انظر مجمع البيان ج ١ ص ٤٠٩.

لفظ الجلالة، وقد مال لذلك هو أيضاً[1].

كما ذكر نفس المضمون السابق المراغي في تفسيره[2] ولم يمل إلى ترجيح قول على قول كما هو ظاهر بحثه.

أما الفخر الرازي فقد قال في تقسيمه للمحكم والمتشابه بما مؤداه: أن اللفظ الموضوع لمعنى إما أن يحتمل غير ذلك المعنى أولاً، فإذا لم يحتمل إلا معنى واحداً فهو النص، وإن احتمل معنيين فإما أن يكون احتماله لأحدهما راجحاً على احتماله للآخر أولا، والراجح هو الظاهر، والمرجوح هو المؤول، وأما إذا احتملهما على السواء كان اللفظ بالنسبة لهما مشتركاً وبالنسبة لكل واحد منهما مجملاً، فاللفظ يكون إما نصاً أو ظاهراً أو مؤولاً أو مشتركاً أو مجملاً، والمحكم هو النص والظاهر، والمجمل والمؤول هو المتشابه. هذا حاصل كلامه، وهو يميل إلى أن المجمل مما استأثر الله بعلمه، لأنه يرجح الوقوف على لفظ الجلالة[3].

٢ ـ بعد أن ظهر أن هذا الرأي موجود بالنسبة إلى بعض آي القرآن الكريم يرد التساؤل: لماذا وضع المتشابه في القرآن

---

(١) انظر صفوة البيان لمعاني القرآن ج ١ ص ٩٦.

(٢) انظر تفسير المراغي ج ٣ ص ٩٧ ط مصر ١٩٥٣ م.

(٣) انظر تفسير الرازي ج ٢ ص ٣٩٥ ط مصر الحسينية ١٣٢٧.

الكريم إذا كان مما يستأثر الله تعالى بعلمه، وبناء على هذا الا يستوي وضعه وعدم وضعه، فما جدوى سطر حروف لا يفهمها الناس إنما يتلونها مجرد تلاوة؟!

أما القائلون بأن المتشابه يعلمه العلماء ـ وهم الفرقة الثانية الذين يقفون على كلمة العلم ـ فالحكمة عندهم واضحة وملخصها أمور: منها أن يشتغل أهل النظر والفقه برد المتشابه إلى المحكم فتشحذ قرائحهم ويطول نظرهم ويتصل فكرهم بالبحث عن معانيه فيثابون على اجتهادهم ويتميز العالم من غيره، ولو كان كله محكماً لاستوى في معرفته العالم والجاهل ولماتت الخواطر وخمدت القرائح، إلى غير ذلك مما يذكر.

فالطائفة الثانية هذه حججها، وأما الطائفة الأولى فحجتهم الوحيدة هي أن الله تعالى أراد أن يتعبد العباد بذلك[1].

وواضح أن هذا الرأي قائم على أن المتشابه هو مما استأثر الله تعالى بعلمه، وهو يعني ما لا سبيل للعلماء إلى معرفة.

والحقيقة أن حجة الطائفة الأولى الذاهبة إلى أن المتشابه مما استأثر الله تعالى بعلمه غير ناهضة، والموارد التي مثلوا بها من

---

(١) انظر المصادر الأربعة التي سبقت هذا المقطع، وهو تفسير الرازي وصفوة البيان وتفسير المراغي والمصحف المفسر.

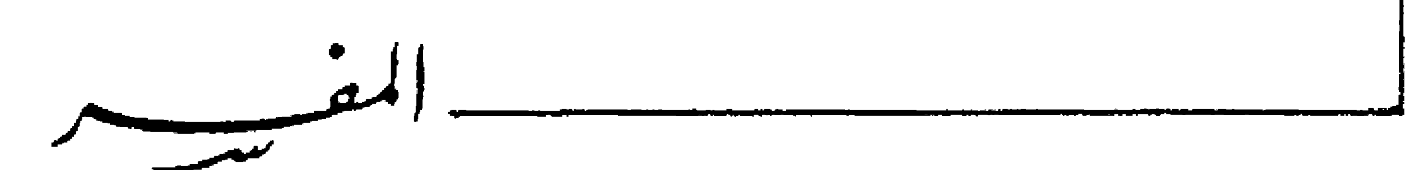
أول الكلام فهي كلها غير معلومة، فقد مثلوا بالصفات صفات الخالق تعالى وقد حددها العلماء واختلفوا فيها، ومن المجموع يعلم كنهها برد المتشابه منها إلى المحكم، وكذلك الحروف المقطعة في أوائل السور، وكذلك معرفة الساعة وانها القيامة وهو المطلوب من فهم الآية، أما وقت الساعة فهو ما استأثر الله تعالى بعلمه، ولكن وقت الساعة والروح لا يشكل نوعاً كبيراً يستحق هذا الاهتمام الذي يصل إلى حد تصنيف القرآن الكريم إلى ما يفهم وما لا يفهم لأنه تعالى أراد أن لا يفهم ليتعبد بذلك الناس، وهو بمجموعة لا يتعدى بضع كلمات.

٣ ـ حتى لو استقام القول بأن هناك بالقرآن الكريم قسماً قد تعبد الله تعالى الناس به بأن استأثر بعلم مضامينه وأنزله مجرد لفظ ليسطر بالكتاب، فإن هذه العملية فعل وأفعال الله تعالى كلها موسومة بالعدل والحكمة منزهة عن العبث، فينبغي شرح هذا الاجمال الوارد بكلمة التعبد، وتبيين مزايا التعبد في بعض الحالات والأهداف والآثار التي تترتب على ذلك وبشيء من التفصيل حتى يفهم القارىء أن هناك نظائر لهذا في الأمور التكوينية والتدوينية تعبد الله تعالى بها عباده.

وهذه حلقة من تلك السلسلة، وبذلك تضفي ايجابية على

هذا المفهوم تخرجه عن حد السلبية التي لا يطمئن إليها الخاطر ولا يكاد يؤمن الانسان بأنها مبرر لهذا الغموض المدعي في بعض آية القرآن الكريم الذي جاء معجزة يتحدى بها الله تعالى الناس في أن يأتوا بمثله، وواضح أن التحدي يكون بالشكل والمضمون، وهذا منبسط على كل كلمة وحرف في القرآن الكريم، ولا يمكن أن يتحدى مما لا يفهم معناه، مع وجود أمكنة أخرى للتعبد هي به أليق.

الفصل الثاني



انتهيت فيما سبق في جولة مختصرة بالتفسير إلى ما يشترط في التفسير الموضوعي، وسأعرض هنا بايجاز شروط المفسر الموضوعي.

المفسر في الواقع هو الروح الذي تمشي في التفسير بما لهذه الكلمة من خصائص وآثار، فالتفسير هو المفسر الواعي العالم الورع البعيد الآفاق، وهو المفسر المتعصب الضيق الأفق غير الورع، وهو المفسر المهتدي بأضواء القرآن، كما هو المفسر الخابط في ظلام الحقد والعصبية، وهو الغواص الذي يجتنيَ اللؤلؤ كما هو السطحي الذي يلم الصدف، وهكذا.

ومن هنا رأينا أن الشروط التي تشترط فيه تكشف عن مدى أهميته في حقل هذا الفرع من العلوم، ذلك أن حضارة المسلمين من عطاء القرآن وآثاره، ولا يؤتمن على مثل هذا التراث إلا القوي الأمين. وسأعرض الآن لأهم ما يشترط في

المفسر، ومنه نرى ما له من مكانة في نظر المعنيين بشؤون التفسير:

١ ـ الشرط الأول أن يكون متقناً للعلوم التالية: اللغة، والنحو، والصرف، والمعاني، والبيان، والبديع معرفة القراءات، معرفة علم الكلام بما يحتاج إليه من مقدمات، الناسخ والمنسوخ، أسباب النزول، تاريخ قصص القرآن والأحداث الواردة فيه.

وهذه هي عين شروط المجتهد زائداً بعض العلوم الأخرى، وهذه العلوم تمكنه من فهم القرآن الكريم وما فيه من أحكام وإرشاد وقوانين كونية على الاجمال وبمستوى المعلومات العامة، أما إذا أراد التعمق في بعض العلوم والالمام الكامل بها فلا بد أن يكون بالاضافة إلى ما مر من أهل التخصص بذلك الفرع من فروع المعرفة.

٢ ـ ذكروا له شرطاً آخر عبر عنه بعضهم بعلم الموهبة والعبارة تحتمل معنيين:

المعنى الأول أن تحصل عنده جراء معرفة العلوم السابقة ملكة الاجتهاد في التفسير، فإنه ليس كل من ألم بتلك العلوم تحصل عنده تلك الملكة، كما هو المشاهد عند من درسوا العلوم الإسلامية المخصصة لطالب الاجتهاد في الشريعة مما

يدل على أنها ليست افرازاً حتمياً لمن عرف تلك العلوم بل هي هبة أخرى.

أما المعنى الثاني المحتمل فهو أن يكون حاذقاً فطناً يلتفت إلى دقائق النكات في التعبير القرآني. وبتعبير آخر يجب أن يكون ـ بالإضافة إلى ما حصل عليه بالجهد من معرفة تلك العلوم ـ ذكياً وموهوباً يقرأ ما وراء السطور ويضع يده على الخصائص الخفية في محتوى القرآن.

وفي عقيدتي أن هذين الشرطين هما الحد الأدنى الذي لا يعتبر المفسر بدونهما مفسراً، فهما أشبه شيء بصفة الاجزاء بالنسبة للعبادة، وستأتي شروط أخرى هي أشبه بصفة القبول بالنسبة للعبادة في نسبتها للتفسير، وهذه الشروط هي:

٣ ـ أن يكون ممن رزق قابلية على المعاناة الشديدة وجسراً على تحمل الصعاب، لأن عطاء القرآن الكريم يتضاعف كلما تضاعفت المعاناة والصبر وكلما أعطيت أخذت أضعاف ذلك.

٤ ـ أن يكون على ورع وتقوى تمنعه من التسرع والحكم دون تثبت ونسبة اشياء لجهات هي بريئة مما نسب إليها، وما أكثر ذلك على ألسنة بعض المفسرين.

٥ ـ أن يكون سليماً معافى في جسده ونفسه، فقد ثبت أن المصابين في هذين الجانبين تترك اصابتهم بصماتها على انتاجهم الفكري شاؤوا أم أبوا، بل وحتى من أصيب بعاهة اجتماعية ظهرت آثار أصابته في كثير مما عمل وكتب وقال.

هذه هي أهم ما يشترط في المفسر، وقد تكون هناك شروط أخرى يشار إليها أحياناً، وكل ذلك يكشف عن أن المفسر يقدم للأجيال زاداً سوف تعيش عليه دنيا الإسلام في حضارتها، وكل نقص في صفة من صفات هذا الزاد هو سيئة على المفسر، وكل كمال فيه هو نور له ورحمة وذخيرة عند الله تعالى وعند الإنسان(١).

نماذج من التفسير

وحيث رسمنا المفسر المطلوب في سطور سنقدم بالاضافة لما قدمنا في حقل التفسير من أقسام للتفسير اعتبرناها ليست بموضوعية.
أقول: سنقدم نماذج أخرى من التفسير ومهمة، هذه النماذج هي أن تعكس لنا المفسر على ضوء ما مر من الشروط لنرى ما إذا كان موضوعياً أم لا سليماً أم لا طويل الباع أم لا

---

(١) انظر في شروط المفسر مجمع البيان ط صيدا ص ١ ـ ٦ في الشروط الأساسية والشروط الباقية مقترحة.

وهكذا، وسأترك للقارىء تبين ملامح المفسر والحكم عليه.

النموذج الأول

﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾ الآية ١٥ من سورة الحجر.

فقد دلت هذه الآية الكريمة على أن ما نبت في الأرض له وزن خاص، وقد ثبت أخيراً أن كل نوع من أنواع النبات مركب من أجزاء خاصة على وزن مخصوص، بحيث لو زيد في بعض اجزائه أو نقص لكان ذلك مركباً آخر، وان نسبة بعض الأجزاء إلى بعض من الدقة بحيث لا يمكن ضبطها تحقيقاً بأدق الموازين المعروفة للبشر(١).

النموذج الثاني

قال محي الدين ابن العربي عند تفسير سورة القدر: ليلة القدر هي البنية المحمدية حال احتجابه عليه السلام في مقام القلب بعد الشهود الذاتي، لأن الانزال لا يمكن إلا في هذه البنية في هذه الحالة، والقدر هو خطره عليه السلام وشرفه،

---

(١) انظر البيان للحجة الخوئي ص ٥٤ ط النجف.

إذ لا يظهر قدره ولا يعرفه هو إلا فيها ثم عظمها بقوله « وذكرهم بأيام الله » الخ[1].

النموذج الثالث

ما ذكره الشيخ محمود الآلوسي في تفسيره حيث قال في تفسير الآية ٥٥ من سورة المائدة وهي قوله تعالى: ﴿**إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكوة وهم راكعون**﴾. فبعد استعراض فقرات الآية وصل إلى ذكر روايات تنص على نزولها في علي (ع) أمير المؤمنين لأنه تصدق بخاتمه حال الصلاة، ولما انتهى من ذكر أسباب النزول قال:

العبرة لعموم اللفظ لا خصوص السبب، فمفاد الآية حصر الولاية لجماعة متعددين يدخل فيهم الأمير - يعني أمير المؤمنين علياً (ع) - وحمل العام على الخاص خلاف الأصل لا يصح ارتكابه بغير ضرورة.

فإن قالوا: الضرورة متحققة ها هنا إذ التصدق على السائل في حال الركوع لم يقع من أحد غير الأمير كرم الله وجهه.

---

(١) انظر تفسير القرآن لابن العربي محي الدين ط بيروت ١٣٨٧ هـ ج ٢ ص ٨٣١.

قلنا: ليست الآية نصاً في كون التصدق واقعاً في حال ركوع الصلاة، لجواز أن يكون الركوع بمعنى التذلل والتخشع لا بالمعنى المعروف في عرف أهل الشرع كما في قوله:

لا تهين الفقير علّك أن
تركع يوماً والدهر قد رفعه

ثم استشهد بموارد لمجيء الركوع بمعنى الخشوع من نمط بيت الشعر الذي استشهد به[1].

أرأيت المغالطات: أنه يقول الآية ليست نصاً في أن الركوع بالمعنى الشرعي بل بمعنى الخشوع، وعليه فهي لجماعة تصدقوا خاشعين، وإذا كان كذلك فمن هم هؤلاء الجماعة، أهم كل من تصدق خاشعاً بقصد القربة، وهؤلاء عددهم كبير جداً، أم هم جماعة خاصة نصت الروايات عليهم فلم لم يذكرهم؟!

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لو تتبعنا موارد لفظة «الركوع» التي خوطب بها المسلمون، فهل نجد معنى للركوع غير الشرعي؟ كلا والموارد الثلاثة التي استشهد بها حكاية حال عن غير المسلمين.

وناحية أخرى لم يدع مدع أن أحداً تصدق وهو راكع غيره

(١) انظر روح المعاني ص ١٦٨ ج ٦ ط بيروت أوفست ١٩٧٠.

عليه السلام، بل كل الروايات نصت على أنه هو المقصود بذلك[1].

والأعجب من ذلك أن بعض المفسرين عندما مر بهذه الآية والتي من قبلها وهي: ﴿**يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه**﴾ الخ، وهي أيضاً نازلة في علي عليه السلام لم يفسرهما بل عبرهما إلى آيات أخرى[2].

النموذج الرابع

تفسير قوله تعالى: ﴿**إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين**﴾ **٣٩** الأعراف.

يذهب أغلب المفسرين إلى أن المراد من قوله تعالى: ﴿**حتى يلج الجمل في سم الخياط**﴾ هو استحالة دخولهم الجنة كما يستحيل دخول الجمل في ثقب الأبرة (الذي هو سم

---

(١) انظر الكشاف ج ١ ص ٢١٩ طبع بولاق ١٢٨١، وتفسير الميزان للطباطبائي ج ٦ ص ١٤ ط طهران ١٣٧٧ هـ، والدر المنثور للسيوطي ج ٢ ص ٢٩٣ أوفست ط مصر ١٣٧٧.

(٢) انظر صفوة البيان لمعاني لقرآن ج ١ ص ١٩٧.

الخياط) أو كما يعبر عنه بعضهم دخول ما يضرب به المثل في الكبر فيما يضرب به المثل في الصغر.

وبناءاً على ذلك فالجمل على معناه المتبادر إلى الأذهان ـ أي الفحل من الابل كما ذهب الزمخشري في الكشاف وحسنين مخلوف في صفوة البيان وفريد وجدي في المصحف المفسر والطبرسي في وجه، والسيوطي في أحد الوجوه، وذلك عند تفسيرهم للآية في تفاسيرهم. وهناك رأي آخر ذكره الفخر الرازي وغيره عن ابن عباس أن المراد بالجمل القلس «أي الحبل الغليظ» وهو أنسب بثقب الابرة من البعير ـ وفي التفسير بذلك ذوقية ـ في المحافظة على جو التناسب في تشبيهات القرآن.

وعلى العموم فإن الآية كما أسلفنا جاءت بصدد بيان استحالة دخول الكافر للجنة، إلا أن الذين يذهبون إلى القول بالتناسخ ـ وهو انتقال الأرواح إلى أبدان متعددة سواء للتعذيب أو للنعيم ـ يذهب هؤلاء إلى أن معناه أن الروح العاصية تبقى منتقلة من بدن إلى بدن ولا تزال معذبة بذلك حتى تنتقل إلى بدن جمل ثم إلى بدن دودة صغيرة تدخل في سم الخياط، وإلى هنا فتطهر من الذنوب وبعدها تدخل

الجنة، لأن ما علق عليه دخول الجنة قد حصل فيحصل الدخول[1].

وهو قول سخيف لا يستحق الرد، أولاً أن الكفر لا يغفر لصاحبه، وثانياً لأن هذه الآراء لا سند لها، وثالثاً لاستلزامها كثيراً من اللوازم الفاسدة التي لا يتسع المجال لشرحها.

النموذج الخامس

تفسير قوله تعالى: **﴿من كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾** الآية ٤٩ الذاريات.

انقسم المفسرون في معناها إلى قسمين: قسم يذهب إلى أن الزوجية هنا المراد بها المتقابلات كالأرض والسماء والليل والنهار والموت والحياة ـ الخ[2].

وذهب الفريق الثاني إلى أن الزوجية المقصودة هنا المتكونة من الذكر والأنثى، أو قل هو قانون الزوجية العامة[3].

---

(١) انظر تفسير الرازي ج ٤ ص ٢٠٩ طبع مصر سنة ١٣٢٤ هـ.

(٢) انظر صفوة البيان ج ٢ ص ٣٥٧، والسيوطي في الدر المنثور ج ٦ ص ١١٥ اوفست مصر ١٣٢٩، وهو وجه للطبرسي أيضاً.

(٣) انظر فريد وجدي المصحف المفسر ص ٦٩٥ طبع دار الشعب، ومجمع البيان في الوجه الثاني ج ٥ ص ١٦٠ اوفست صيدا.

وقد قصر بعضهم الزوجية هنا على النبات، أي أنه فسر الآية الكريمة هكذا: ﴿**ومن كل شيء**﴾ من النبات ﴿**خلقنا زوجين**﴾، في حين أن الآية مصدرة بالعموم ولا موجب لتخصيص هذا العام بلا مخصص، لأنه لم يذكر أي مخصص سوى أنه استبعد تصور معنى الزوجية في الجوامد. وقد يعذر لأن معنى الزوجية بمعناها الحديث بعيد عن ذهنه، ولا يعذر لأن غيره تصور ذلك وعده وجهاً[1].

وعلى العموم فالآية الكريمة صريحة في الكشف عن قانون الزوجية العامة الذي لم يكتشف إلا حديثاً.

النموذج السادس

قوله تعالى في آية ٤١ من سورة الرعد: ﴿**أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب**﴾.

وقد اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿**ننقصها من أطرافها**﴾ ففسره الأكثر بأنه اشارة إلى ما يفتحه الله تعالى على المسلمين من ديار الكافرين، فالآية تخاطب الكافرين بناءاً على هذا الوجه. وتلفت أنظارهم إلى منن الله تعالى على

---

(١) انظر الكشاف ج ٢ ص ٣٥٦ طبع مصر ١٢٨١.

المسلمين بالفتوحات وقد ذهب لذلك جماعة[1] وذهب بعض آخر من المفسرين إلى أن معناه موت الناس وخراب ديارهم[2].

ويذهب فريق ثالث إلى وجوه عدة: منها أولاً ما يفتح من الكافرين من أرض ويدخل في حوزة المسلمين، وثانياً موت العلماء والأخيار، وثالثاً موت سائر الناس وخراب ديارهم، ورابعاً الخراب بعد العمران والنقيصة في الأرض. وقد شبهها ابن عباس بالقرية تخرب حتى يكون العمران في ناحية منها وتخرب باقي نواحيها[3].

والذي يهمني هو هذا الوجه، وقد أشار إلى هذا المعنى ـ أعني خراب بعض جهات الأرض ـ بعض الباحثين المحدثين، واستدل من هذه الآية على قانون التعرية والتآكل الذي يحدث

---

(١) انظر المصحف المفسر لفريد وجدي ط دار الشعب ص ٣٢٨، والكشاف للزمخشري ج ١ ص ٤١٠ ط مصر ١٢٨١، وهو وجه من أربعة وجوه للطبرسي، وكذلك وجه من عدة وجوه للسيوطي في الدر المنثور.

(٢) الطباطبائي في الميزان ج ١٣ ص ٤١٧ ط طهران ١٣٨٤ هـ، والمراغي في تفسيره ط مصر سنة ١٩٥٣ ج ١٣ ص ١١٧، وصفوة البيان لحسنين مخلوف ج ١ ص ٤٠٨.

(٣) انظر مجمع البيان ج ٣ ص ٣٠٠ ط طهران اوفست صيدا، والدر المنثور للسيوطي ج ٤ ص ٦٨ ط طهران اوفست مصر.

في الأرض باستمرار[1].

هذه نماذج من التفسير قدمتها، ولم أتعقمها بأي تعليق وإنما تركت للقارىء وحده أن يستنبط منها ومما مر قبلها صفات المفسرين من العلمية واللاعلمية، ومن الورع وغير الورع ومن التعصب وعدم التعصب، أو قل من الموضوعية واللاموضوعية.

(١) انظر التفسير العلمي للآيات لحفني أحمد ط مصر ص ٣٨٩.

خاتمة

وأرجو أن يكون هذا البحث البسيط لبنة في طريق البحث الموضوعي الحر في هذا الميدان.

وأكرر ما سبق أن دعوت إليه من ضرورة تفسير القرآن الكريم تفسيراً علمياً ييسر للأجيال أن تأخذ زادها منه وهو غير مشوب بالكدر ولا محفوف بالمنغصات ولا محاط بالتزوير والتهريج، وما أجدر هذه المأدبة الكريمة ـ كما عبر عنها ابن عباس عندما وصف القرآن بأنه مأدبة الله ـ أقول: ما أجدرها بأن تخلو من المنغصات، فإن الله تعالى لم يعد لعباده زاداً يريد منهم أن يأكلوه هنيئاً ثم هو يضع فيه السم.

إن ذلك خلاف المنة والرحمة، إنما ذلك من صنع الانسان، من صنع المفسرين الذين لم يصلوا إلى مستوى الرسالة في تفسير القرآن الكريم.

والحمد لله أولاً وآخراً.

أحمد الوائلي

النجف ١٥/١٢/١٣٩٠ هـ

الفهرست

الفصل الأول

الفصل الثاني